

بين أحمد المنصور الذهبي وأحمد باب التمبوكتي

محمد بن شريفة

حضرات الزملاء الأعزاء : الموضوع الذي سأحدث فيه أو أطرحه للنقاش - وهو موضوع أحمد المنصور وأحمد بابا - معروف ولا شك عندكم، وفيكم من هو أجدر مني بالكلام فيه وأقدر على تناوله، وإذا كنت سأثيره أمامكم فلمناسبة أولاً وباقتراح ثانياً. أما المناسبة فهي الندوة التي نظمتها الإيسيسكو منذ أيام بمراكش حول أحمد باب التنبُّكتي، وأما الاقتراح فهو طلب الإدارة العلمية للأكاديمية مني أن أتكلم في هذا الموضوع حيث إنني حضرت هذه الندوة وقد رأيت أن لا أقدم إليكم البحث الذي أسهمت به في هذه الندوة وهو دور أحمد باب في خدمة الأدب البيوغرافي وآثرت أن أبسط أمامكم للنقاش، بعض التأملات في الموضوع وهي من أثر الحوار الذي كان يجري خلال الندوة المذكورة بين المشاركين المغاربة والماليين.

لست أدري إذا كان يصح لي أن أبدأ كلامي بالمقدمة التالية وهي أننا محسودون على تاريخنا الكبير، محاسبون اليوم من هؤلاء الجيران على ماضيها المجيد وقد أضيف بأننا نعامل سياسيا من هؤلاء على ضوء ذلكم التاريخ الحافل. وثمة أمثلة عديدة من بينها مثال جيراننا القدماء الأفارقة الذين كان يشملهم اسم بلاد السودان فوجد أنهم بتأثير من تحرشات وتحريضات ودعايات وإيديولوجيات تنكروا أو كادوا يتنكرون لقرون عديدة من التواصل والتعاشر والتمازج منذ عهد المرابطين أو قبلهم إلى عهد الاستعمار الأوروبي. ذلكم التواصل الذي جعل من المغرب البلد الوحيد في شمال افريقيا الذي يبرز فيه أثر التواصل بينه وبين السودان كما يظهر ذلك في السحن والألوان وغيرها.

ويبدو أنه وقعت غفلة أو تغافل منا في أول استقلالنا واستقلال البلدان الافريقية عن استثمار هذا التراث الضخم من التواصل بيننا وبين بلاد السودان، وأنا لا أنكر أن هذا التواصل لم يكن كله إيجابيا، وإنما كانت فيه سلبيات هي التي استغلها المستعمرون لتشويه طبيعة العلاقات التاريخية بيننا وبين هذه الدول الافريقية ومنها مالي على سبيل المثال، وقد ركزوا بصفة خاصة على موضوع الحملة المغربية في عهد المنصور التي كانت لها مبرراتها المعقولة كما كانت لها نتائجها المقبولة ولا سيما في عملية التمازج التي ما تزال بقاياها في مالي وفي المغرب.

إن الكتابات المغرضة التي عالج بها كثير من الأجانب هذا الموضوع أثرت أحيانا حتى على بعض المؤرخين الذين يتسمون بالرزانة والاعتدال، ومنهم الدكتور حسن أحمد محمود، فقد اضطرب قوله في تقييم الحملة واختلف حكمه عليها، فهو يقول في صفحة 194 ما يلي :

«وبلغ هذا الاتصال مداه في القرن السادس عشر حينما عمل سلاطين مراكش على التطلع نحو الجنوب بل دخلوا تنبكت وقضوا على دولة سُغى، وأعادوا الوحدة القديمة بين السودان وبلاد المغرب التي حققها المرابطون، وفي ظل هذه الوحدة انطلقت المؤثرات الثقافية بين القطرين من كل قيد، انتقل كثيرون من علماء السودان إلى المغرب الأقصى، ومنهم الفقيه المعروف أحمد باب التنبكتي. ومؤرخو السودان ينسبون إلى هذا الاحتلال المراكشي كل رذيلة وينسبون إليه أسباب تأخر الثقافة العربية ثم اضمحلالها من القرنين السادس عشر والسابع عشر، وإن كنا نعتقد أن هذه الصلة لو قدر لها أن تطول لتركت آثارا هامة في مجرى الثقافة العربية في غرب أفريقية ولكن المراكشيين انسحبوا لمواجهة التوسع الاستعماري ومدافعة الخطر الذي تعرضت له السواحل المغربية».

ويقول في صفحة 356 أخرى بعدها :

«والفتح المراكشي وما أعقبه من احتلال وما صحبه من فوضى لم يسيء إلى الناحية الاقتصادية فحسب بل أساء للناحية الثقافية، وما نكاد نقرأ ما كتبه مؤرخو السودان منذ القرن السادس عشر فصاعدا حتى نحس بأن احتلال المراكشيين لتنبكت ولغيرها لا يقلُّ من حيث آثاره ونتائجه عن غزو المغول لبغداد»

ولم يكن غير المغاربة هم الذين انتقدوا حملة السودان، وإنما انتقدها بعض المغاربة أيضا قديما وحديثا مثل القادري في «نشر المثنائي» والفقيه الكانوني في «جواهر الكمال» الذي يقول في لهجة تغلب عليها العاطفة وتخفى عنها حقائق ميزان القوى يومئذ، قال :

«من أكبر عيوب المنصور أنه على عظمة قدره كان معرضا عن الأندلس وأهلها وما لنا وللأندلس وهذه ثغور المغرب كانت لا تزال تحت يد العدو

كالجديدة والدار البيضاء والمعمورة وطنجة والعرائش وسبتة، فكيف طاب للمنصور على ضخامة ملكه ووفور عدّته ومساكنة العدو ومزاحمته له حتى في الجديدة والدار البيضاء وهما من مراسي عاصمته مراكش، بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا وهو فتحه السودان وهجومه على تنبكتو عاصمة تلك البلاد وهي بلاد إسلامية مستقلة بنفسها كانت لها مدنية وعلوم ومدارس، وحمل علماءها مصفدين محمولين على الجمال كأنهم لصوص أو قطاع طرق مع أنهم كانوا مصاييح تلك البلاد وهداتها».

وما أبعد لهجة هذا التنديد عن لهجة التمجيد التي نجدها في الحوليات التاريخية الرسمية كـ «مناهل الصفا» و«المنتقى المقصور» أو في القصائد المطولات لعبد العزيز الفشتالي وغيره.

على كل حال ليس المقصود في هذا الحديث معالجة موضوع حملة السودان لأنها موضوع كبير، وحديثنا هو عن حادثة معينة من حوادث الحملة، وهي حادثة آل اقيت وزعيمهم أحمد باب وموقفه من أحمد المنصور.

وكما ذكرنا قبل فقد وقعت مبالغات في تصوير هذه الحادثة في معظم الكتابات التاريخية وهول القادري في أمرها فقال: «ولمثل هذا تبكي البواكي». وقد ذهب هو والسعدي مؤلف تاريخ السودان إلى أن الإتيان بأحمد باب وأهله إلى مراكش كان فاتحة أبواب البلاء على الدولة.

فما الذي جرى لأحمد باب في واقع الأمر ؟

حقيقة لقد امتحن بسبب ما يمكن أن نسميه موقفا سياسيا من أحمد المنصور وما قام به في السودان ولكن كيف كانت محنته ؟

قال بعضهم إنه كان في الحبس وقال آخرون إنه وضع تحت الإقامة الإجماعية، وقيل إنه وقع من على ظهر الحمل فانكسرت ساقه وقيل إن كتبه نهبت. وقيل وقيل وهي أقاويل فيها مبالغة وتهويل، ولعل هذا يبدو مما يلي :

1. إذا كان أحمد باب قد استقدم إلى مراکش بسبب معارضته للسلطان فإنه مع ذلك عومل بغاية الاحترام وأنزل منزلاً يشعر بالإكرام، لقد أنزل هو وأهله في رياض بدر عبيد الله في حيّ المواسين القريب إلى جامع الأشراف، ومن المعروف أن حيّ المواسين هو حيّ عليّة القوم وأعيان البلد ورجال الدولة، وما يزال الرياض الذي أنزل فيه موجوداً ولو أنه جُزئ إلى أكثر من دار، وقد شاهده المتدّون في ندوة الإيسيسكو بمن فيهم الوفد المالي، وقد كان في هذا الرياض ممر خاص إلى الجامع وإلى المكتبة.

2. مما يدل على أنه لم يكن في حالة سجن أو اعتقال أنه كان يستقبل الزوار ولا سيما طلبة العلم في مراکش الذين ما قصروا في مؤانسته ومساعدته، وتلبية رغباته ومطالبه العلمية وهو يعترف بهذا في مقدمة كتابه المخطوط «اللثائي السندسية» فيقول :

«وبعد فيقول عُبَيْدُ اللَّهِ الْفَقِيرُ الْحَقِيرُ، ذُو الْقُصُورِ وَالتَّقْصِيرِ، أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَمْرِو بْنِ مُحَمَّدٍ أَقَيْتُ عَرَفَ بَابِ التَّنْبُكْتِي الصَّنْهَاجِي وَفَقَّهَ اللَّهَ تَعَالَى وَهَدَاهُ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَهْلِ وَدِّهِ وَتَقْوَاهُ.

لما قدر الله تعالى دخول بلدة مراکش على الوجه الذي أراده في الأزل وقضاه، وذلك في أواخر اثنين وألف وسهل لي مع ما أنا فيه من التضيق والحبس

الوقوف على جملة كتب غرائب لم أكن قبل وقفت عليها لكثرة تردد الطلبة إليّ في محبسي، وإتيانهم إليّ بالكتب لمحبتهم في الغريب من أبناء جنسهم».

وهذا نص واضح في الدلالة على العناية الفائقة التي لقيها أحمد باب من أهل مراکش الحمراء عموما وعلمائها خصوصا، وهو يعترف بذلك في مواطن مختلفة من تأليفه، وقد نوه مرارا في «نيل الابتهاج» وفي «كفاية المحتاج» بأحد أبناء هذه المدينة ذوي الأخلاق الكريمة وهو المؤرخ الأديب محمد بن يعقوب ومما قال في حقه : «لم ألق بالمغرب أثبت منه ولا أوثق ولا أحقق ولا أعرف بطرق العلم منه».

وإذا عرفنا أنه لقي في المغرب عددا من الأعلام في مراکش وفاس من أمثال ابن القاضي مؤلف «الجدوة» و«الدرة» و«المنتقى» والمقري مؤلف «النفع» و«الأزهار» وغيرهما، أدركنا قيمة هذه الشهادة وقيمة هذا الرجل الذي نفتقد الآن آثاره ولا سيما فهرسته التي عرف فيها بأحمد باب وغيره، ونحن ندرك أيضا من قراءتنا لـ «نيل الابتهاج» و«كفاية المحتاج» سر هذا التقدير وسبب هذه الشهادة.

فما أكثر ما نجد في «النيل» و«الكفاية» أمثال قول أحمد بابا : «كذا بخط صاحبنا المؤرخ محمد بن يعقوب الأديب :

أو «كذا كتبه لي صاحبنا المؤرخ محمد بن يعقوب الأديب».

أو «قال صاحبنا المؤرخ محمد بن يعقوب».

وهذا الأديب الشاعر كان يدعى في مراکش صدر الأفاضل وقد عرّف به ابن القاضي في «درّة الحجال» ونوّه بأدبه وأورد بعض شعره في مدح المنصور وهو مؤرّخ يمثل أثارة طيبة وبقية صالحة وامتداداً حياً لمؤرخي مراکش الأعلام من أمثال صالح بن عبد الحليم، والبيدق، وابن عذارى، وابن عبد الملك وغيرهم. ومن الغريب أن التمنارتي لم تعجبه كلمة أحمد باب التي قالها في حق المذكور.

قلت آنفاً إن الكتب انهالت على أحمد باب عندما كان فيما سُمّي «تحت الإقامة الإجبارية»، ويخيل إلي أن مسارعة علماء مراکش تقديم الكتب إلى أحمد باب ومساعدتهم له بها كان قبل أن تُردّ إليه كتبه.

3. يقول أحمد بابا إنه «نهب له ألف وستمائة مجلد». ولكن يبدو أنها أو بعضها أرجعت إليه في مراکش. فقد أشار هو في ترجمة الشيخ خليل إلى تعليقه على متنه وافتقاده إياه، ثم قال : «وقعت علينا محنة وشتت شملنا وذهبت نفائس كتبنا، جعلها الله كفّارة وتمحيصاً، ولما جبر الله علي بعضها بعد دخولنا لمراكش أصبّت منها ذلك التعليق». ولعل مما يدل على أن كتبه أعيدت إليه أن أحمد المقري زار أحمد بابا في منزله بمراكش وتحدث عن مكتبته قائلاً : «وأعارني جملة كتب من خزانته الفريدة المبدئة في اقتناء الغرائب المعيدة»

4. مما يدل على أن مقام أحمد باب في مراکش لم يكن متّسماً بسمّة السجن أنه ألف أكثر مؤلفاته وأهمها وأبرزها وأشهرها خلال هذه الفترة، ومنها «نيل الابتهاج» و«كفاية المحتاج» و«الآلئ السندسية» وغيرها من هذا النشاط التأليفى. ويعود هذا إلى عدة أسباب : منها تفرغه ولا سيما في أيامه الأولى

بمراكش، ومنها توفر الكتب المهداة إليه وهو يذكر هذا في آخرها، ويرجع يعترف بهذا الذي ذكرناه من أنه كان في الأيام الأولى رهين الحبس أو تحت الإقامة الإجبارية كما يقال اليوم، فعمر وقته بالتأليف وقد ذكر القادري في «نشر المثاني» أنه رأى تأليف بخط أحمد بابا كتبها أيام سجنه ونقل تاريخ الانتهاء من إحداها وهو كما يلي :

«تم والحمد لله والشكر له على نعمه التي لا تحصى على يد كاتبه لنفسه الفقير أحمد بابا... خار الله له في أموره وحفظه من غيره وشروره، بعد الزوال يوم الثلاثاء حادي وعشرين من ربيع الأول عام أربعة وألف أرانا الله ختامه في عافية آمين، وذلك بدرب عبيد الله من مدينة مراكش المصونة، وأنا مع عيال وجماعة من أهل بيتنا محبوسون بها، عجل الله بالفرج التام بمحمد وآله عليه الصلاة والسلام».

ومن هذه التأليف التي ألفها خلال الثقاف «مختصر المواهب القدسية» الذي جاء في آخره :

«وافق الفراغ منه وقت الضحى يوم السبت رابع ربيع الثاني من عام أربعة وألف أرانا الله ختمه في عافية وطاعة، وذلك بمدينة مراكش، وأنا بها مع زمرة من قومنا مثقفون بها عجل الله تعالى بالفرج آمين».

ويعترف بهذا في وقتنا الدكتور محمود الزبير صاحب الأطروحة الممتازة عن أحمد باب التنبكتي وهو كذلك مدير مركز أحمد بابا للتوثيق الموجود في تمبكتو بمالي، فهو يقول في أطروحته المذكورة :

«إن الفترة المغربية من حياة أحمد بابا (1593-1607م) كانت أخصب مراحل حياته الثقافية فقد ألف خلال هذه الفترة القصيرة أزيد من نصف مؤلفاته أي تسع وعشرون أو تزيد من مجموع مؤلفاته المعروفة التي يبلغ عددها ستا وخمسين مؤلفاً» اهـ.

5. لقد كانت حياة أحمد بابا في مراكش خالية من أي رقابة أو متابعة، بل إنه انتدب للتدريس والافتاء بجامع الأشراف وكان يتحرك ويسافر كيف يشاء.

وخلال السنوات التي قضاها في مراكش تعرف عليها وعلى ناسها وخططها، وكان يخصص يوم الجمعة لزيارة المزارات الكائنة بها، ذكر في ترجمة أبي العباس السبتي في «الدياج» أنه زاره مرارا لا تحصى وجرب بركته غير مرة ووصف الحال التي كانت عليها زاويته من ازدحام الخلق عليها وقضاء حوائجهم وذكر أن بركته تعم قاصديه من الفقراء ثم قال :

«وقد زرته ما يزيد على خمسمائة مرة وبثُ هناك ما ينيف على ثلاثين ليلة وشاهدت بركته في الأمور»

ويقول أحمد المقرئ في «روضة الآس» : «وكنت كثيرا ما أذهب معه إلى زيارة الصالحين بحضرة الإمامة مصحوبين بجملة أعلام».

ولما ترجم في «الدياج» لمحمد الهزميري الأغماتي قال : في آخر الترجمة: «وقد زرت قبره بأغمات مرارا وتوسلت عنده ولله الحمد».

وكان هذا ديدنه أيضا عندما ذهب إلى فاس، قال في ترجمة الفقيه دراس بن اسماعيل : وهو خارج باب الفتوح مشهور عند أهل فاس، زرته مرارا».

وقال في آخر ترجمة ابن حِرْزهم : «وقد زرت قبره مرارا بفاس والحمد لله».

ويدل هذا كله على نزعته الصوفية وهي النزعة الغالبة على المتدينين من الأفارقة إلى يومنا هذا فهم يحجون لزيارة ضريح سيدي أحمد التجاني في فاس بل إن زيارة الأضرحة في ذلك العصر وما بعده كانت شنشنة عامة الناس وخاصتهم، وهذا ما نجده في تراجم علماء العصر السعدي والعصر العلوي.

وقد ذكر ابن القاضي في «المنتقى المقصور» أن المنصور كان يحرص على زيارة أضرحة أولياء مراكش وأغمات. ومن المعروف أن نظام زيارة الرجال السبعة في مراكش ظهر خلال هذا التاريخ.

ومن الواضح أن إكثار الشيخ أحمد بابا على زيارة أضرحة زيادة على ما ذكرناه كان للتوسل في أن يرد الله غربته ويسهل عودته.

أشرت آنفا إلى زيارة أحمد باب إلى فاس وأسوق بمناسبة ذلك هذه اللطيفة فقد نقل المهدي الفاسي أنه خاطب أهل فاس حين أتاها بقوله تعالى : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾، (الأحقاف، 20). فأجابه بعضهم بقوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾، (الرحمن، 46). وثمة لطيفة أخرى وقعت له مع أهل مراكش فقد ذكر أنه «لما خرج من مراكش يقصد بلده شيعة أعيان الطلبة فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ﴾، (القصص، 85). على ما جرت به العادة من قراءتها في وداع المسافرين فيرجع سالما فنزع أحمد باب يده بسرعة وقال : لا رَدَّنِي اللهُ إِلَى هذا المعاد، ولا رجعني لهذه البلاد.

رحم الله أحمد بابا فقد كان محبا لبلاده وكان يتشوق لرؤيتها، ويسكب العبرات عند ذكرها وله شعر ساذج في الحنين إليها.

ويرجع الفضل في عودته إلى بلاده إلى السلطان العالم زيدان السعدي. نقل المهدي الفاسي أنه تواعد معه لئن أفضى إليه أمر السلطنة ليطلقه، وكتب له بذلك، فلما أفضت إليه قرأ له البخاري، فلما كان الختم ناوله المکتوب بوعد فاطمته. وأضاف المهدي الفاسي أن زيدان ندم فيما بعد على ذلك وأنه بعث رسولا وراءه يرجوه أن يعود ولكنه أبى ومضى لحال سبيله.

والذي يستفاد مما ذكر أن السلطان زيدان وكذلك أهل مراکش كانوا قد ألفوا وجود أحمد باب بينهم وحَمِدُوا عيشه معهم فصعب عليهم فراقه. يقول القادري في «نشر المثنائي» إن الشيخ أحمد باب «نفع الله به هذا القطر المغربي، وحمل عنه علم غزير، واستفيد ما عنده من التحقيق والتحرير وقد اشتهر فيه اشتهار أهله وتحققت فيه مكانة قدره وفضله، مع ما أكرمه الله به من مضاعفة الأجور وعلو الدرجات بمشاق الأمور، بسبب ما لحقه من الامتحان، الذي هو لأمثاله عنوان غاية الكرام والرضوان».

فهذا الكلام يعكس القبول الذي لقيه أحمد بابا والصدى الذي تركه في المغرب وقد استمر إلى عهد القادري في القرن الثاني عشر الهجري وإلى ما بعد، ومما يدل على ذلك عناية المغاربة بنسخ مؤلفاته حيث يوجد معظمها في الخزائن المغربية.

ولما أنشئت المطبعة الحجرية في المغرب كان من أوائل ما طبع فيها بعض مؤلفات أحمد باب وقد بلغ من محبة أحد المؤلفين المغاربة لأحمد باب أن قال إنه مغربي وليس بسوداني.

6. كان للمكتبة المغربية والكتب التي استعارها أحمد باب أو أهداها إليه الناس فضل كبير عليه وعلى تأليفه فقد وجد بغيته أولاً في مكتبة جامع الأشراف ثم في مكتبة المنصور وولده زيدان على الخصوص.

أما مكتبة جامع الشرفاء فهو يشير إليها مرارا في «نيل الابتهاج» وغيره وقد أشار في «النيل» خلال ترجمته إبراهيم ابن قائد إلى شرحه لمتن خليل المسمى «تسهيل السبل» وذكر أنه رأى في خزانة جامع الشرفاء شرحا آخر سماه «تحفة المشتاق، في شرح مختصر خليل بن اسحاق» وأشار إلى هذه الخزانة في المصدر نفسه في أثناء ترجمة عمر القلشاني وذكرها مرة ثالثة في ترجمة الفشتالي قاضي الجماعة بفاس.

وأما مكتبة زيدان الذي كان يعتبر أحمد باب شيخا له فقد وقفت فيما بقي من هذه المكتبة في الأسكوريال على مطالعة أحمد لبعضها. لقد كان أحمد باب ولوعا بالكتب شغوفاً بزيارة المكتبات خبيراً بأصول المخطوطات، شأنه في هذا شأن آل أقيت الذين كانوا يتنافسون في شرائها من المغرب ومصر.

ولأحمد باب في ولعه بنفائس المخطوطات قصص طريفة غريبة نذكر منها الحادثة التالية : فقد توقف في طريق عودته إلى تَنبُكْتو بتمْگروت حيث المكتبة المشهورة والمعروفة إلى يومنا هذا، وخلال إقامته بتمْگروت ألف رسالته في مسألة التبغ التي انتهى من تأليفها بتمْگروت. والشاهد عندنا هنا أنه خلال إقامته في تمْگروت رأى عند الفقيه التمْگروت محمد بن إبراهيم نسخة جيدة من كتاب «الروض المعطار» للحميري - هذا المعجم البلداناني القيم الذي أخرجه صديقنا الكبير الدكتور إحسان عباس - وقد أعجب الشيخ بابا بهذه النسخة وتعلق بها تعلق هاوي المخطوطات عندما يعثر على مخطوط نفيس.

وإكراما له باعتباره ضيفا وتقديرا لشخصيته العلمية وافق مالك المخطوطة على إعارتها له بشرط أن ينتسخ منها نسخة تم يردها.

ولكن حصل ما يحدثنا المرباط التمگروتی المذكور بقوله : «ليعلم الواقف على هذا أن الفقيه العالم سيدي أحمد بن أحمد ابن أحمد اقيت الصنهاجي التنبكتي، بباب شهر وعُرف، استعار مني هذا التأليف في جزئين بخط مشرقي عتيق صحيح لا نظير له، استعاره مني عام انصرافه من المغرب لبلده تَنبُكتو، وذلك عام ستة عشر وألف، وكان طلب مني أن أسمح له به حتى يستنسخه ففعلت، فحبسه خمسة عشر عاما وأنا أكتب له عليه في ردّه فوجّه إليّ هذه النسخة المنسوخة من نسختي وحبس نسختي، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وجاءتني هذه النسخة عام أحد وثلاثين وألف».

من هذا المثال وغيره مما ذكرناه يتبين أن أحمد بابا عاد إلى بلده بعلم غزير وخير كثير وصيت كبير ولم يكن ليَحْصُلَ على ذلك كله لولا إخراجِه من تَنبُكت.

7. وأصل أخيرا إلى موقف أحمد باب من المنصور

ورغم ما ذكرناه فإن أحمد باب ظل يعتبر نفسه مظلوما، وكان ينظر إلى السلطان المنصور على أنه ظالم، وقد صنفه في بعض مؤلفاته مع الحجاج، وسُني علي، وفي هذا إجحاف كبير وشطط عظيم، فالحجاج أمره معروف وسُني علي أشبه بجبار وثني منه بملك مسلم، فكيف يوضع سلطان عالم أجازة علماء المشرق والمغرب وشهد بحكمته واعتداله وتوازنه جميع الذين كتبوا

عنه إلى جانب المذكورين. وثمة فقرة كتبها أحمد في النسخة الأولى من «نيل الابتهاج» وهي مخطوطة يشيد فيها بأحمد المنصور ويقول :

«فقيدتُ فيه بحسب المنّة والإمكان، وذلك حين كنت ببلدنا البعيدة عن نيل المقصد من ذلك لبعدها من مدن العلم والأوطان، فقصر بي الحال مع قلة الكتب هناك وعدم مساعدة الزمان، حتى تفضل من له الفضل، وأحسن إليّ من له الطول، سبحانه، بوصولي إلى منبع العلم في الديار الغربية، حضرة الإمام العلية، المولوية الهاشمية الأحمدية المنصورية حاطها الله من طوارق الزمان، ومن شر الملوان، فرأيت أسباب السعادة بها متيسرة وأزمة الأمانى فيها مبذولة غير متعسرة، ونشدت الضالة فرأيتها أقرب إلي من ظلي وظفرت بما يكمل مرادي ونلت أمني فبادرت حينئذ إلى كتب ذلك الذيل، مستبشرا بالطول والنيل، وقلت لنفسي :

يا سعد جدي، قد ظفرت بمقصدي، وذلك لأمرين : أحدهما أن إكمال ما شرع فيه من الخير سنة مأثورة، والثاني، وهو المقصد السني، أني رأيت حضرة من تسمو الآمال إلى سدة بابه، ويسعى الخلق لخدمة ركابه، ملك المغربين بالأسل والنصال، ما بين قطر الجنوب إلى الشمال، عالم الملوك وملك العلماء، فخر السلاطين أبو العباس مولانا أحمد المنصور بن أمراء المومنين الحسينيين أيده الله تعالى - معمورة بالعلم مأهولة بذويه، وسوق المعارف نافقة عند متعاطيه، وذلك لهمة العلية وطويته الحسنة السرية فيه، فأردت أن أخدم خزانته المشتملة على الطمّ والرّم من كتب العلم بهدية وإن كنتُ في صني كجالب ثمرٍ إلى هجر، أو قارض شعر لدى آل مُضَر :

ملك منشد القريض لديه يضع الثوب في يدي بزاز»

ثم إنَّ أحمد باب حذف ما كتبه في مقدمة النسخة الأولى فهو لا يوجد في النسخة المطبوعة والمتداولة بين أيدي الناس، ومن الواضح أنه فعل ذلك بعد عودته إلى بلده، وفي هذه الحادثة ما فيها من دلالات.

أما المقابلة المشهورة بين أحمد المنصور وأحمد باب فيظهر أنها غير صحيحة ولا تذكرها حوليات العصر وإنما ذكرها الأفراني، وهو متأخر، ومن الواضح أن المقصود بها إظهار جرأة أحمد باب، ولكنها حتى على فرض ثبوتها تدل على حلم المنصور وما أعظم الفرق بين خشونة أحمد باب وجفائه في مخاطبة السلطان وبين الشاعر والأندلسي الرقيق ابن مقانا الذي خاطب الملك الشريف الحمودي الإدريسي بقوله :

أنظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين

أو الشاعر الأسود الكانمي الذي خاطب المنصور الموحيدي بقوله :

أزال حجابي عني وعيني تراه من المهابة في حجاب

وقربني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي

وأذكر هنا إشارة بسيطة تدل على تحفظ المنصور الذهبي وتقيده بالشرع فقد كان كما هو معروف عالما أديبا شاعرا تهزه أريحية الأدب ويطرب لسماع الشعر والمديح، ولكنه كان ضد الغلو في المديح، وقعت له على تعليق بخطه في مخطوط «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر» النصري يقول فيه :

«لا ينبغي لعاقل أن يخلد بمثل هذا القول السفساف»

فملك هذا شأنه لا يتصور منه أن يتشبه برب الأرباب حسب العبارة المنسوبة إلى أحمد باب.

إن موقف الرجل من أحمد المنصور ومن الولاة عموماً الذي عبر عنه في كتابه «جلب النعمة» وكتابه : «ما رواه الرواة»، وكتابه : «معراج الصعود». يشبه أن يكون موقفاً سياسياً أو إديولوجياً إذا صح استعمال الكلمة هنا وهو موقف يقوم على الفصل بين العلم والسلطة أو ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بينهما، وهذه قضية أخرى.

حضرات الزملاء لقد أحسنا في بداية الندوة من إخواننا الماليين شيئاً من التأثير لما حدث لأحمد باب ولكن ما دار في الندوة من نقاشات وشروح وإضافات كشف لهم عن جوانب جديدة وأظن أنهم رجعوا بصورة مغايرة. ومما أذكر أنهم زاروا معنا قبور السعديين ودار أحمد باب في درب عبيد الله وكانوا مسرورين بفكرة الاحتفاظ بهذه الدار التاريخية.